



الرسالة

تصدرها
جمعية الدراسات القبطية
نيوجرزي - أمريكا

السنة السابعة عشر

العدد السابع: يوليو ١٩٩٨

صفحة مضيئة من تاريخ الرهبنة في القرن العشرين

للأستاذ نجيب اسكندر يوسف
سانتا مونیکا - كاليفورنيا

للمواصلات التي يملكونها، حيث أن العربة الجيب لا يمكنها أن تعبر تلال الرملة الهائلة التي تغطي فم الوادي كله، ثم بدأ بقية النسّاك في تفريغ حمولة العربة وتوصيل المؤن التي أحضرتها إلى مكان سكنهم على عدة مراحل.

وإذ لم أكن معتاداً على ركوب الجحش ولا سيما في صعود وهبوط المنحدرات، تلك الحقيقة التي أدركها الجحش الماكر على الفور، فقد بدأ يهزّني على الجانبين حتى اضطررت أن أترجّل من على ظهره. وقد عبرنا منطقة التلال في نحو ساعة، ثم بدأ الطريق يكون أقلّ إرهاقاً

وبعد ساعة أخرى وصلنا إلى مكان المغائر الذي يمتد نحو ثلاثة كيلو مترات نحو الغرب. ولما وصلت إلى أول مغارة رحّب بي أبونا اسطفانوس ودعاني لكي أستريح في مغارته، وقدم لي طعام الغذاء بكرم وأعطاني فرصة لكي أنام قليلاً حيث أنني كنت في غاية التعب. وبعد الظهر استأنفت بقية الطريق على قدمي إلى المغارة الرئيسية التي كانت تستعمل ككنيسة حيث حيّاني بمحارة الأب المبجل، متى المسكين الأب الروحي لنسّاك وادي الريان.

في أواخر عام ١٩٦٠ اختار هؤلاء النسّاك ذلك الوادي القفر الصعب الوصول إليه لكي يمارسوا حريتهم في عبادة الله بدون أي عائق أو تدخل. وكان الوادي معزولاً تماماً عن العالم الخارجي حيث أنه لم يكن مسموحاً لأي زائر بالذهاب إلى هناك إلا بموافقة مسبقة. كما أنهم لم يحتفظوا بأي جهاز راديو لضمان الهدوء

كانت أجمل أيام حياتي عندما قضيت أربعة أسابيع في صيف سنة ١٩٦٧ في زيارة لنسّاك وادي الريان، وهو وادٍ قفر يقع في الصحراء المصرية الغربية على بُعد نحو ٢٠٠ كم جنوب غرب القاهرة. غادرنا القاهرة في منتصف الليل نحن: المهندس نبيل فوزي (وهو الآن الأب يعقوب المقاري)، والدكتور نصحي عبد الشهيد، والأب بول ميناس (وهو أسقف الروم الأرثوذكس بطنطا)، وأنا؛ وذلك بعربة جيب قديمة كانت تزود المتوحدين كل أسبوعين بطعام طازج والاحتياجات الضرورية الأخرى.

سافرنا بالعربة الليل كله، وعند الفجر وصلنا إلى مدخل البرية النائية القاحلة. ثم انتظرنا حتى ضوء النهار لكي نتأكد أننا في الموقع الصحيح لنبداً طريقنا نحو الجنوب. حيثئذ استأنفنا الرحلة المحفوفة بالمخاطر ملاحظين باستمرار أن الشمس يجب أن تكون عن يسارنا. وصلنا في العاشرة صباحاً إلى وادي الريان الذي يشكّل حرف U فاتحاً فمه نحو الشرق. وتوقفنا بالعربة المحملة تحت ظل شجرة برية جنوب عين ماء شمال وادي الريان. وهناك مكثنا، نبيل فوزي وأنا، تحت الشجرة. بينما ذهب بقية المسافرين إلى المغارة الرئيسية التي كانت تُستعمل ككنيسة، وهي على بُعد سبعة كيلو مترات نحو الغرب، وذلك لكي يخيروا بوصولنا.

وفي غضون ساعتين رأينا من على بُعد بعض النسّاك ملبسهم السوداء يسوقون جحشاً وهم مقبلون نحونا. رحبوا بنا وساعدوني لكي أمتطي ظهر الجحش، فقد كان هو الوسيلة الوحيدة

والانعزال الكاملين.

معظم هؤلاء النساك مؤهلون جامعياً، وفضلوا الحياة الرهبانية على الاستمرار في سلك حياتهم المهنية. وعلى سبيل المثال، فإن الأب المكرم متى المسكين هو خريج كلية الصيدلة من جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، ثم صار صاحب صيدلية عام ١٩٤٧، وقد زهد في ممتلكاته ومستقبله المهني عام ١٩٤٨ وسلك الحياة الرهبانية. وأبونا أليشع - كمثال آخر - خريج كلية التجارة من جامعة القاهرة، ثم صار تاجر قطن ناجحاً، ثم تنازل عن ثروته ومهنته عام ١٩٦٣ وانضم لجماعة النساك عام ١٩٦٥... وهكذا. وقد رحبوا بي جميعاً كأخ في الروح للمجموعة كلها، وخصّصوا لي مغارة قريبة، وعيّن أبونا إرميا لكي يهتم باحتياجاتي، فاصطحبني بلطفٍ إلى مغارتي التي كانت حجرة واحدة مساحتها ٦×٣ أمتار، وارتفاعها نحو متر واحد و ٩٠ سم (١,٩٠ م)، وتحتوي على سرير من حجر منحوت، عليه فراش سميك، وكرسي خشبي، ومنضدة صغيرة، وصهريج ماء صغير مزوداً بصنبور وموضوعاً فوق قاعدة حجرية، وبعض الكتب، ومصباح يعمل بغاز الكيروسين (لمبة جاز)، وجهاز طيني بائني للطبخ تعلّمت كيف أعمل عليه الشاي بدون دخان كثير.

كانت الحوائط الداخلية كلها والسقف خام، حيث أنها منحوتة في طبقة رقيقة من حجر جيرى طفلي من صخر صلب. والبلورات الجصية على الحوائط الداخلية كلها والسقف تعكس الأشعة وتلمع ببريق مثل المس داخل المغارة خصوصاً في ضوء الشمعة أو المصباح. والجو داخل المغارة حار باعتدال، ولكنه محتمل وثابت كل الوقت نهاراً وليلاً، ومع ذلك فقد اعتدت سريعاً على حياة المغارة وتمتعت بها كثيراً.

دعاني أبونا إرميا لكي أتسلق السهل الواسع المرتفع الذي يقع فوق منطقة المغائر، وذلك لكي أتألف مع البيئة المحيطة بي. ذهبنا نحو الشمال، واجتازنا ذلك المرتفع كله في حوالى ساعتين حتى وصلنا إلى أقصاه الذي يطل على البرية الواسعة التي تمتد حتى شمال الوادي. وهناك جلسنا على قمة عالية لكي نسبح. ونمجد الله بينما كنا نلاحظ غروب الشمس. ولم يكن يُرى أي إنسان أو حيوان أو طير على مدى هذه الرحلة. وقد جمعتُ من هذا المرتفع بعض الحجارة النارية المميّزة الخمراء الداكنة، والتي يُعتقد أنها كتل صغيرة من نيازك (شهب) قد صُهرت ونفخها الهواء وتشكّلت بطريقة غريبة أثناء دخولها المجال الجوي بسرعة هائلة.

وفي يوم آخر ذهبت مع الأب إرميا إلى مغارة قبر قديم داخل قمة تل صخري شديد الانحدار يقع شرق منطقة المغائر. وكان مدخل القبر ضيقاً وواطئاً جداً، وكان علينا أن ندخله زاحفين. ولأن الأب إرميا كان يعلم أن القبر تسكنه عائلة من القطط البرية (حيوان الفنكة)، فقد صاح عدة مرات قبل أن ندخل للتأكد من عدم وجود أي من أفراد تلك العائلة بالداخل. والقبر يمتد بعمق

داخل التل، ولذلك فهو مظلم جداً. وقد استخدمنا بطارية لكي نرى الكتابات القبطية والصلبان المرسومة على الحوائط المبيضة بالجبس. ويُعتقد أن هذا القبر من مخلفات حياة رهبانية مبكرة كانت تستوطن وادي الريان منذ نحو ١٢٠٠-١٥٠٠ سنة. وبينما كنا خارجين من المغارة رأينا صقراً يملق فوقنا وهو يُطلق صرخات تحذيرية لنا لكي نرحل من هذا الموقع حيث يوجد عشه فوق قمة التل.

كما ذهبت في يوم آخر مع الأب إرميا إلى الحديقة الصغيرة التي أنشأها هؤلاء النساك في أسفل الوادي على بُعد نحو كيلومترين جنوب منطقة المغائر. وبداخل الحديقة كان يوجد ينبوع ماء كانوا قد اكتشفوه حديثاً وبعض الأشجار الصغيرة معظمها نخيل. وكانت الحديقة مسورة بحزم من فروع أشجار جافة بشكل دائري لكي تساعد الرياح على إبعاد الرمال التي لو تركت فهي تتراكم وتكوّن بالتدريج تلاً رملياً يجتاح الحديقة. والمساحة المزروعة في الحديقة كانت نحو مائة متر مربع كانت تنمو فيها أنواع معينة من الخضروات التي تتحمل المياه المالحة لكي تزود جماعة النساك ببعض الخضروات الطازجة.

وفي طريقنا إلى الحديقة وعودتنا منها جمعنا وأكلنا بعضاً من الثوت الأحمر البري الخلو الذي يُسمى "غردق" الذي كان ينمو بوفرة في الوادي. ويكوّن ثمر الغردق بالإضافة إلى ورق شجره الأخضر الطعام الرئيسي لقطعان الغزال العديدة التي كانت تُرى أحياناً، والتي كان يسميها النساك "سواح البرية"، حيث أنها كانت تعيش حياة نسكية وليس لها مساكن، وكانت لا تستريح إلا قليلاً سواء في النهار أو الليل، فهي ساهرة معظم أيام حياتها، وهكذا فإنهم يشبهون السواح من نواح عديدة..!

وبعد أن تألفت مع البيئة المحيطة بي، اعتدتُ أن أخرج وحدي لكي أتمتع بوجودي الكامل والفريد أمام الله القدير. ففي تلك البرية النائية القفرة حيث لا يراك ولا يسمعك إنسان، لعله يستولى عليك الشعور بأن الرب هو الوحيد الذي ينبغي أن تثق فيه وتعتمد عليه بالكلية، وأنت أنت مخلوق الله الفريد الذي يمنحك عنايته الكريمة بغزارة، وحينئذ تشعر بالرغبة في تسيحه وتمجيده. ملء الفم وغيرها القلب.

ومع ذلك، فقد كنتُ أدعى بين حين وآخر، إلى مشاركة النساك في حياتهم وأنشطتهم الخارجية، فقد شاركهم مثلاً في رحلة إلى دير أنبا صموئيل الذي يقع على بُعد نحو ٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي من منطقة المغائر. وكان أفراد الرحلة هم الأب إيليا والأب أليشع وأنا. وكانت خطة الرحلة ومسارها قد درسهما الأب متى المسكين الذي كانت له معرفة كاملة بالمنطقة. وقد وجّهنا هو ألا نقرب من أجزاء معينة من المنطقة تغوص الأرجل في رمل أرضها حتى أن الجمل أيضاً يغوص فيها بعمق. أعددنا كل شيء للرحلة، وحملنا الجحش بخيصة خفيفة

في المغارة المظلمة لكي أرفع صلاة وأسبح الرب على كل أفضاله على البشرية، وعادةً أصقق بيديّ لكي أجعل الترتيلة التي أوّلها في الحال منسحمة. وفي هذه الصلاة أتصور نفسي واقفاً بين الخوارس الملائكية، واضعاً جميع اهتماماتي الشخصية جانباً. إن الاستنارة التي أنالها من صلاة نصف الليل تفوق جداً على أية صلاةٍ أخرى. وأعتقد أن الاهتمامات اليومية والمشاعل والمعاملات والمناظر تشوش بالفعل بطريقة ما على اتصال الإنسان المباشر والحرّ بالروح.

شيئاً آخر تمتعتُ به كثيراً في فترة وجودي بالريان هو الاجتماع الأسبوعي لجميع النسك في أمسيات السبوت وصباحيات الأحاد. فبعد صلاة رفع بخور العشية يوم السبت كان الأب متى المسكين يلقي كلمته الروحية الأسبوعية التي كانت تستغرق بصفة عامة نحو ثلاث أو أربع ساعات. وفي هذه الكلمة كان ييسّط أكثر الأسرار الإلهية تعقيداً ويجعلها في مستوى إدراك سامعيه. كما أنه كان يُشخص بدقة الضعفات البشرية ونقائصها وعللها ويفهمها مهما بدت غامضة أو مستترة، وقد أعطى نعمةً للتعامل مع مثل هذه الضعفات ولكي يقود نفوس تلاميذه خطوةً خطوةً إلى مستوى أفضل من الإيمان والاستنارة. إنه في الحقيقة واحد من أكثر الملاحين السماويين سموً ومقدرةً جذابةً في جبلنا. وهو قادر على الدوام على اجتذاب تلاميذٍ جددٍ وإعادة صياغة حياتهم من جديد. وتلاميذه في الوقت الحاضر هم عشرات الألف منهم النسك والرهبان والأساقفة والكهنة والشمامسة المكرسين وأصحاب المهن، رجالاً ونساءً من جميع الأعمار. وجميعهم يتبعون مشوراته وتعاليمه التوجيهية سواء بالاتصال الشخصي أو بالرسائل أو الدراسات البنائية المهمة أو النبذات أو المقالات التي تنشر في مجلة "مرقس".

بعد القداس الإلهي كل يوم أحد يعدّ النسك وجبة طعام مشتركة يشترك فيها جميع النسك والزوار. وأثناء الطعام يقرأ أحد الرهبان في كتاب "بستان الرهبان"، وهكذا يُقدّم نوعان من الطعام: روحي وجسدي، متزامنين، لتغذية الروح والجسد بالاحتياجات الخاصة بكل منهما.

وما تأثرت به حقاً أكثر من أي شيء آخر هو المحبة المتبادلة التي كانت تسود على مجمع الشركة الصغير هذا، فكل عضو فيه له رباط وثيق برفيقه بألفة المحبة الصادقة. وكانوا جميعاً يكونون توفيراً وثقةً كاملةً في مرشدهم الأب متى المسكين الذي كانوا جميعاً يسمونه "أبوناً" بدون ذكر اسمه. وتشبه وحدتهم بالمحبة والرأي والروح ما كانت عليه الكنيسة الأولى عندما كان كل واحد يضحى بذاته وممتلكاته لأجل الفائدة العامة للجماعة كلها. والحياة وسط مثل تلك الجماعة هي بركة حقيقية حيث لا تعود تشعر أنك في صحراء قفرة جديباء، بل في وادٍ غني ممتلئ بفيضٍ روحاني.

وجرابندية ماء وبعض الطعام الذي أرسل كهدية لدير أنبا صموئيل. وبدأنا رحلتنا في منتصف الليل تماماً بينما كان القمر سيستمزضنا حتى الصباح. وعند شروق شمس اليوم التالي كنا قد عبرنا وادي الريان في اتجاه جنوب شرقي منطقة المغائر. وبعد أن تناولنا إفطارنا اتخذنا طريقنا نحو الجنوب لمدة نحو ثلاث ساعات ملازمين لسفوح سلسلة التلال الغربية. وفي مكان معين عندما كانت كتبان الرمل في أقل عرض لها، بدأنا نغير تلك الكتبان التي تضلل الناس، حيث فقد الكثير من المسافرين والحيوانات حياتهم. وقد رأينا عبر هذا الطريق عدة هياكل عظمية لهذه الضحايا.

وعند الظهر صرنا على قمة أعلى كتيب رملي حيث رأينا جبال القلمون على الجانب الآخر. عندئذ شعرنا بالارتياح، وتوقفنا بعض الوقت لتناول طعام الغذاء ونشرب الشاي. وعند غروب الشمس وصلنا إلى جبل القلمون الذي يقع بجواره دير أنبا صموئيل. وفي الدير رحب بنا الأب مينا وبقيّة الرهبان، وقد قضينا هناك يومين ممتعين عُدنا بعدهما سالكين نفس الطريق.

كما أننى اشتركت في رحلة قصيرة إلى عين ماء الريان الجنوبي، التي رتبها الأب موسى، وهو مهندس سابق في بلدية الاسكندرية، ثم صار بعد ذلك هو المتنيح الأنبا أندراوس أسقف دمياط. وهناك قضينا اليوم كله بين مجموعة من النخيل مسبحين وممجدين اسم الرب. وعند الظهر رأينا قافلة من حوالي ٣٠ حمل يسوقها اثنان من البدو وهي تقرب نحو البئر حيث كنا معسكرين. فحينما الرجلان وأقاما بالقرب منا، وقد قدّمنا لنا بعض الخبز الذي خبزناه في الحال في الهواء الطلق، بينما أعطيناهما نحن بعض الطعام المملّب. وقد جاءت القافلة إلى الوادي لكي تعسكر لمدة أسبوعين لكي تحمي جمالها من مرض منتشر معدٍ.

وقد اعتدتُ أن أمكث عدة ساعات أثناء الليل خارج مغارتي جالساً بمفردي على صخرة تطلُّ على الوادي معجباً بهدوئه الرائع. وفي الليالي المظلمة كانت النجوم تتلألأ أكثر مما رأيتهما من قبل على الإطلاق، وفي الليالي القمرية يكون الوادي مغموراً بضوء القمر الفضي، فيبدو كأنه نهر سماوي هائل يجري مزهواً بين شاطئين شاهقين، فتذكرت حينئذ النهر الزجاجي المذكور في سفر الرؤيا، وتصورت أن النسك الأتقياء الذين يعيشون فوق المنحدر، الذين واجبههم الوحيد ومسرّتهم هما في أن يقدموا التمجيد للعلي، كأنهم هم القديسين المذكورين في هذا السفر ومعهم قيشارات الله في أيديهم مسبحين على الدوام ملك القديسين. وبدأت أرتل وأودّد تلك الآيات ولا سيما الآية الأخيرة: "ورأيت كبحرٍ من زجاج ... والغالبين الوحش .. واقفين على البحر الزجاجي، معهم قيشارات الله، وهم يرتلون ترنيمه موسى عبد الله وترنيمه الخروف قائلين: عظيمة وعجيبية هي أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شيء، عادلةً وحقّ هي طرقك يا ملك القديسين" (رؤ ١٥: ٣ و٢).

كما أننى تعودتُ أن أنهض في نصف الليل وأقف بجوار فراشي